LITERATURES

الأدبـــيـات

الرثاء في شعر عباس ناصر عبد السلام الإبراوي
قصيدة "إلى أين وليّ الله قومي" نموذجا

إعداد
مختار محمد الثاني
قسم اللغة العربية
كلية التربية الفيدرالية بمدينة أوكيني، ولاية كوغي
+234869042993
muktaromolorimso@gmail.com

ملخص
يعد الرثاء غرضاً من الأغراض الشعر العربي منذ عهد بعيد الذي يصور به الشاعر حزنه وبكاءه نحو الميت وذكر فضائله وصفاته الحميدة. فالرثاء لم يختص بزمن غير زمن ولا يقتصر علي أمم دون آخر، أو ببيئة دون أخرى، ولكلّ قوم فيه شأنٌ ملموسٌ ونصيبٌ موفورٌ. فقد تطرق الشعراء المستعربين في نيجيريا فن الرثاء تقليدا لشعراء العرب القدامى حيث رثوا محبوتهم وأقاربهم وشيوخهم وأظهروا في أشعارهم الحزن والتفجع ولهفة اللقاء ولوعة الفراق واستعظام المصيبة للمرثيين. وعباس ناصر عبد السلام الإبراوي من خيرة الشباب في منطقة إبيرا تاعو – ولاية كوغي- الذي تطرق فن الرثاء في شعره. فتهدف هذه المقالة إلى دراسة قصيدة"إلى اين ولي الله قومي؟" للكشف عن الصور الفنية التي تتميز بها القصيدة وإبراز ملكة الشاعر في تصوير عواطفه وشعوره نحو المرثي. استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي لنيل إلى الغاية التي يرمي إليها البحث. وفي نهاية المطاف، توصلت الدراسة إلى نتائج مقنعة تبرز أن القصيدة المدروسة تمتاز بالصور الفنية من زوايا مختلفة، وأهمها أن الشاعر أجاد في رثاء الشيخ وذكر فضائله وصفاته النفسية وأن القصيدة تمتاز بالعاطفة القوية

الصادقة، والخيال والظواهر الأسلوبية وجودة اللغة والخصائص العروضية.

الكلمات المفتاحية:
الرثاء، ناصر عباس عبد السلام، خصائص التراكيب، العاطفة، الخيال.

ABSTRACT
Elegy is one of the purposes of Arabic poetry for a very long time and it used by some poets to express their feelings and emotions about deceased person and describe his good characters and qualities. This aspect of poetry is not limited to a particular time or group of people because it has been in existence in almost every language and tribe. The Nigeria Arabic poets have engaged in this area of poetry when they cried for their love ones, parents, teachers and relatives and express their sadness and sorrow after them through poetry. Abbas Nasir Abdussalam al-Ebirawiy in one of the prominent youths in Ebira land Kogi State who explore this aspect of poetry. The objective of this paper is to analyze his poem "Where is the friend of Allah my people" to bring out some artistic and aesthetic aspects of the poem and to disclose the creative capability of the poet while revealing his pain and sadness about deceased Analytical method was adopted for the study to meet up the aim and objectives of the study. The results of the research explained that the studied poem is characterized with many aesthetics and artistic values which shows clearly that the poet composed the poem using the personal creative skill and succeeded in describing the deceased and listed his good character, values and his position in the society at large. Lastly, the paper disclosed that the poem was composed with some linguistics, stylistics and prosodic such as Emotion, imagination, metaphor assimilation among others.

Key words:
Elegy, poetry, Ebira- land, Abbas Nasir al-Ebirawyi

المقدمة

الرثاء هو التعبير عن حزن الشاعر وفجعه بموت شخص عزيز عليه فيبكيه في شعره ذاكرا صفاته النبيلة وما كان يتحلى به من خصال حسنة ويصور لسامعين حزنه وألمه وبكاءه عليه وما أصبح عليه من حالة سيئة لا تعرف سوى الحسن والبكاء، والرثاء من أهم الأغراض الشعرية القديمة التي تناولها الشعراء العرب في أشعارهم حيث رثوا وبكوا على الأموات من الأقارب والأحباء والأبناء والملوك والأمراء وصوروا هول الفجيعة الذي

ألم بهم وذكروا صفات المرثين الحميدة كالصدق والكرم والشجاعة ومن أهم الشعراء الذين أظهروا حزنهم في الشعر المهلهل والخنساء في العصر الجاهلي وحسان بن ثابت و متمم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، ومما حدث بعد الإسلام في طرق الرثاء الجمع والتعزية والتهنئة التي خصصت بالخلفاء في تعزية من يلي عهد أبيه منهم [1] حتى تبوأ الرثاء مقعدا عظيما في الدولة الأموية حيث كانت المراثي يُناح بها نوحاً على القتلى والأموات، واشتهر كثير من الشعراء العباسيين في الرثاء كالمتنبي وابن الرومي وأبو تمام وأبو نواس، وأبو البقاء الرندي و ابن الآبار في العصر الأندلسي، وهكذا واصل الرثاء سيره حتى العصر الحديث. ولا يقتصر هذا الغرض الشعري في الأدب العربي فحسب، بل غرض معروفة في جميع الآداب العالمية، غير أنه يأتي بأشكال متنوعة وأساليب مختلفة حسب العادات والتقاليد وإن كانت الغاية منها واحدة، والرثاء قديم في الشعر العربي النيجيري الذي تناوله الشعراء حيث بكوا على الأموات وأظهروا الفجيئة لهم والحسرة لفقدهم ذلك لأن ّخصائص الإنسان وفضائله لا تظهر أحيانا إلا بعد وفاته، وقد ظهر الرثاء في مناطق إبيرا تاعو منذ أن يظهر الشعر العربي في المنطقة حيث يثنى الشاعر الإبرواي على الميت وتعدد فضائله ومزاياه وبيان الفراغ الذي تركه المتوفي، ويعد ناصر عباس من خيرة الشباب الذين طرق هذا الغرض في شعره، وقصيدته "إلى أين ولي الله قومي" وهي عبارة عن القصيدة التي رثى فيها الشيخ محمد الإمين الإبرواي، وقد تما إنجاز هذا البحث من خلال أربعة المحاور التالية:

المحور الأول: ترجمة حياة الشاعر: مولده وشعره

المحور الثاني: عرض وتحليل القصيدة

المحور الثالث: الألفاظ والتراكيب في القصيدة

المحور الرابع: الصور الفنية العاطفة والخيال وخصائص المعاني والموسيقي

مفهوم الرثاء:

الرثاء الرثاء هو بكاء الميت بالشعر والتفجع عليه والإشادة بأخلاقه ومواقفه وأفضاله.[2] وبعبارة أدق هو هو مدح الأموات بما كانو يتصفون به في حياتهم من كرم وشجاعة ومروءة وعفة، والرثاء فن أصيل يعد من أسبق الفنون وأصدقها على ألسنة الشعراء لأنه تعبير صادق عن النفس الإنسانية، تعبير عن لهفة اللقاء ولوعة الفراق وإظهار التفجع واستعظام المصيبة. وقد أكثر الحروب الطاحنة هذا اللون لفقد الفرسان والأبطال وشاركت النساء في ذلك الرجال.

والرثاء الصادق إنما ينبث عن شدة الشعور والإحساس، وناهيك بالشاعر إحساسا، به يصير شاعراً، وعلى قدره ترفع منزلته بين الشعراء أو تنحط، ومن المفيد القول أن الرثاء في عهد ما قبل الإسلام يمتاز بالصدق كما في رثاء الخنساء لأخيها صخر[3]

ترجمة الشاعر

هو عباس ناصر عبد السلام الإمام، إبراوي القبيلة، مالكي المذهب، أشعري العقيدة، صوفي الاتجاه، تيجاني السلوك. وُلد يوم الثالث والعشرين من شهر يونيو، بحي ""أوهودو ""(uhwodo) إبيرا تاعو عام ألف تسعمائة وأربع وتسعين ميلادية (23-6-1994م)، نشأ بقرية أوهودو إبيرا تاعو في حضانة والديه، وتلقى مبادئ الدروس الأولية والثانوية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بدار أبيه عند أبيه الشيخ ناصر عبد السلام الإمام على النظام التقليدي. ثم التحق ناصر عباس بالمدرسة الإبتدائية (FOMWAN ARABIC N/P SCHOOL OBANGEDE) وبعد ذلك نقله أبوه إلى مدينة إلورن العلمية فواصل إلى دراسته إلى مدرسة مصباح الدين الإسلامي غاما إلورن حيث دراس الإعدادية والثانوية بين 2006 إلى 2013م. وفي عام 2015م التحق ناصر عباس بقسم اللغة العربية جامعة بايرو كنو ونال شهادة الليسانس في اللغة العربية وبدابها عام 2018م. ثم درس الماجستير بالجامعة نفسها عام 2020م.

شعره:

كان الشاعر يحب الشعر العربي منذ صغره وكان يرغب في حفظ قسطاً كبيراً من الشعر العربي القديم كرثاء الخنساء لأخيها صخر وأبو الذئيب الهذلي في رثاء أبناءه وأشعار العباسيين، كما اطلع على بعض قصائد الرثاء لشعراء النيجيرين فيؤثر كل ذلك في شاعريته، فبدأ ينظم القصيدة منذ أن كان في المرحلة الثانوية وحين يفعل ذلك لا يزال يطلع على بعض القصائد للشعراء المحدثين والنيجيريين ليقوى هذه الملكة الشعرية حتى أصبح أشعاره يخرج بشكل فنية وجمالية. وله قصائد في أغراض مختلفة كالمدح والرثاء والوصف والوعظ والإرشاد، والتهنئة، والسياسة والوطنية وغيرها من الأغراض التي طرقها الشاعر.

عرض القصيدة:

كـــــــــــــــريم مـــــــات والدمع يفـــــور ** فـــقلت
كيف تسكنه القبـــــــور؟
وفـــــورا قـــالـــــــت نفسي أ هـــــــــذا **
مـــــــــصوّرنا يُـمـــيت هـــــــــو المرير
فأدركت بـــــــــــأنّ ذا الـــــــجـــــــلال ** لمحـي
بل مميـــــت هـــــــــو القدير
ويجعل موتـــــــــــنا سمّا نـقيـــعـــا ** وحـــــرّا
بـــــــل لـــــــــــــه أمر خطيـــرٌ
ولكن قلـــــــــت يـــــا نفسي مقولـــي ** لـــذا
الأمـــــــــــر هـــــــو الأمر الكبير
إلى أيـــن صـــــــفي القلب خلقـــــا؟ ** إلى أيـــــــن
محـــــــــبّنـــــا وقـــــــــور ؟
إلى أين ولـــــــــــيّ اللـــــــــــه قومـــي؟ ** إلى
أيـــــــن العليـــــــــم هـو المنير ؟
فقدنا البحر بل شمس الهدايه ** بشير الـــــــناس وهْـــو لهم نذير
فـــــــــقيه فيـــــلسوف ذو البـــــيان ** ولي
الأوليـــــــــــــــــاء بـــــــــــــــل أمير

ولو يرضى الحمام عنه الرشوه ** أظنه أحسنا وهو الجدير

لأنّ مرشدي شيخ الامين ** يُغسِّل قلبنا فهو المشير

يصير ذيلنا ذيلا قطيعا ** ونحن بموته قوم فقير

حمام لست حقا ذا الحياء ** بأخذك من يتم له البرور

يتيما صرت مذ صار فقيدا ** يتيم الرشد ـ اغفر يا غفور ـ

إلاهي فاجعل الفردوس دارا ** لواعظنا ـ يكون له المصير ـ

وألحقه بعثمان، عليّ ** كذا عمر ورابعهم الأمير

وبرهمنا كذا بأبي العباس ** كذا بمقفّى أحمدنا النذير

كذا بالأنبياء الأولياء ** وهم لناس نور كالبدور

وبحر الشعر وافرنا الجميل ** مفاعلتن مفاعلتن فعولن (4)

مناسبة القصيدة

القصيدة رثائية غرضا، وقال الشاعر عن مناسبتها: قصيدة رائية مرثية للشيخ الفاضل المرحوم محمد الأمين عبد الله الإبراوي، الراحل إلى رحمة ربه الأعظم، تغمده الله برحمته

مناسبة قصيدة "إلى أين وليّ الله قومي".

التحليل المعنوي للقصيدة

يسيطر على الشاعر جو الحزن والأسى لفقد الشيخ العالم في منطقة إبير تاعو، وتتضمن القصيدة بكاء على الميت وذكر فضائله الحميدة ويمكن

استخلاص الأفكار المتضمنة في هذه القصيدة واختصارها في أربعة أفكار، وهي:

الفكرة الأولى:

البكاء على الميت: يظهر في مطلع القصيدة إلى البيت السابع (البيت 1-7): استهل الشاعر قصيدته بقلب حزين على انتقال الشيخ المرحوم إلى رحمة ربه، في الأوان الذي كانت الأمة الإسلامية في الحاجة الهامة إليه؛ لتنوير المصباح على المسائل الدينية، ويرى وفاته في ذلك الوقت نقطة سوداء على الأمة، لأن مثله في تحليل المسائل الشريعية إن وُجد؛ فقليل ما هم. ولذلك يقول الشاعر:

كريم مات والدمع يفور ** فقلت كيف تُسْكِنُه القبور ؟

كريم: الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، الرجل الذي يجمع الفضائل، قد توفي ولم تزل العيون تدمع، بالغت الحادثة عند الشاعر منتهى المبالغة، وآثارت عليه حتى كاد أن يهتك حمى التوحيد لعظمتها، بقوله: فقلت كيف تُسْكِنُه القبور؟ لولا رجوعه إلى إيمانه ويقينه بربه سبحانه وتعالى، فقال: ففجعةً نبَّهتْه نفسه بأن الخالق المصوّر الذي يؤتي الروح لمن يشاء يقبض عليها أيضا متى شاء، وهو الذي جعل الموت هالكا حرّا جدّ، وجعل له شأنا عظيما يفوق التصوير، ثم اعتذر الشاعر ويتوب عمّ ساقه حزن وفاة الشيخ إليه من قولٍ يشبه الجحود بالإيمان، بأنه لا يكاد يتحمّل حزن وفاته إذ هي حادثة عظيمة بكل معنى الكلمة، أو وكيف يُتحمَّل فراق من نقي قلبه، وله الوقارة والرزانة، وكان ولي الله، وهو العليم الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر في حين كانت الأمة الإسلامية في أمَّس الحاجة إليه؟ إلا أن تتسلّم لقضاء الله سبحانه وتعالى فقط، اعترافا أنّه قدّر وما شاء فعل، مع الإيمان بأن كل نفس ذائقة الموت بلا تحديد الزمن، ثم يسأل إظهارا لتحسره، قائلا: إلى أين تذهب هذه الشخصية الجامعة بين صفاء القلب والحب والرزانة والولاية، مع العلم والإرشاد في حين كانت الجماعة في الحاجة الملحّة إليها؟

الفكرة الثانية:

التعدد بأوصاف المرحوم الجميلة الحميدة (البيت 8 – 9): يعدد الشاعر صفات الشيخ المرحوم حتى يشبهه بالبحر بجامع النفع بينهما، أي:

كما ينفع البحر الناس ينفعهم الشيخ المرحوم، ويشبهه أيضا بالشمس في الهداية أي: كما تضيئ الشمس يضيئ الشيخ المرحوم، ثم يقول أن المرحوم لم يشغل بشيء في حياته إلا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولم يقم به جهلا بل بالعلم والثقافة الإسلامية الشاملة، وهو الحكيم البليغ الفصيح، ووليّ الله وحبيبه رضي الله تعالى عنه.

الفكرة الثالثة:

التمنى، ويقصد ذلك التمنى بأن يفضِّل الموت الرشوة على قبض روحه، مع ذكر حاله وقومه بعد وفاته (البيت 10 – 15): يتمنى الشاعر لو فضّل الفناء الرشوة بدلا من قبض روح المرحوم حينئذ، لكان خيرا للأمة الإسلامية مهما بلغ ثمنها لمكانة المرحوم، ولأهمية وجوده وحياته للأمة المحمدية، ثم يقول أنهم الآن بموته مثل الذيل المقطوع، وفقير الإرشاد، ثم يعاتب الموت على أخذ مثل هذا العبد الصالح الذي يطيع الله في السرّ والعلانية، ويجاهد في سبيل الله لله وحده بعلمه وماله، ولا يخاف لومة اللائم في ذلك، وكان إماما في العبادة علاوة على ذلك، ثم يصرّح بيتيميته لوفاة المرحوم.

الفكرة الرابعة:

الاختتام للقصيدة (البيت 16 – 19): اختتم الشاعر بالدعاء للشيخ الواعظ المرحوم أن يدخله الله جنة الفردوس، وأن يلحقه بالصالحين الأولياء وبالأنبياء المرسلين.

المحور الثالث: الألفاظ والتراكيب في القصيدة

(أ) **الألفلاظ:** الألفاظ هي اللبنات التي تكوّن الأسلوب، وبامعان نظر الباحث في هذه القصيدة يجد إمكانية الشاعر في استشفاف روح الألفاظ واختيار الألفاظ السائرة بين الناس والمفهومة غير المعقدة، لا يضطر السامع أو القارئ إلى الرجوع إليها في المعاجم، فالألفاظ: كريم، الدمع، يفور، القبور، فورا، مصوّر، والمرير. كلها ألفاظ فصيحة منتقاة، توحي إلى المعاني الجميلة التي وضعت من أجلها، وهكذا بقية ألفاظ القصيدة.

ذكر الشاعر كثيراً من صفات المدح للشيخ المرحوم، مثل: صفي القلب، محبّنا وقور، ولي الله، العليم، المنير، البحر، شمس الهداية، فقيه، وفيلسوف، وجاء تكرار لفظ ولي الله في البيت السابع والتاسع، وبالغ في وصفه بالوقور، والكلمة (الوقور) من صيغ المبالغة على وزن فعول، وكل ذلك لمكانة الشيخ المرحوم عند الشاعر.

واستخدم كذلك الفعل المضارع "يفور" لدلالة على استمرارية حزنه على وفاة المرحوم، و"يميت"، ليفيد أن القبض على الأرواح أمر مستمر وسيعوم الجميع، ولذلك فعلى الشاعر الصبر لئلا يهتك حمى الإيمان. واستوظف كلمة "محي ومميت"، اسماً فاعلاً لإثبات الإحياء والإماتة لله وحده سبحانه وتعالى، لأن الشاعر وصفه باسم الفاعل الدال على الثبوت؛ لما كان الإحياء والإماتة يخصه فقط وثابتا له، لئلا يظن المتلقي ويسأل هل فيه من "يحي ويميت" بعده عز وجل؟ واستخدم اسم المفعول "قطيعا" على وزن "فعيل"، ليحيط بالمتلقي العلم أن وفاة الشيخ سيحدث على الأمة الإسلامية خسرانا عظيم القدر.

(ب) التراكيب: التراكيب جمع التركيب، يقال لغة تركب الشيء من كذا وكذا إذا تألف وتكوّن منه،[5] ويختلف معنى التركيب أو المركب باختلاف ميدان العلم مثل الكيمياء والمنطق الخ، والمركب عند البلاغيين مثلا هو اللفظ المؤلف، ويعني عند النحاة قول مؤلف من كلمتين أو أكثر لفائدة، سواء أكانت الفائدة تامة أم ناقصة، ويتنوع إلى أنواع مثل المركب الإسنادي والإضافي والعطفي والمزجي والعددي [6]. أما المركب الإسنادي فهو الذي يسمى جملة أيضا، ويتمثل في عملية تطويل وتقصير الجمل أو توسطها في النص الأدبي. وأسلوب هذا الشاعر نحو تراكيب الجمل في القصيدة، يستخدم هذه التراكيب تبعا لفكرته وعاطفته، تمتاز بالسلامة وموافاة أغراضه، ويتراوح تطويل الجمل الاسمية من القصيدة في مثل قوله:

فـــــــــــقيه فيـــــــلسوف ذو البيان ** ولي
الأوليـــــــــــــــــــــــــــــــاء بل أمير

كما يبدو تطويل الجملة الفعلية في مثل قول الشاعر:

فأدركت بـــــــــــــــأنّ ذا الجـــــــلال ** لمحـــي بل مميت هـــــــــــــو القدير
ويجعل موتـــــــــــــــــنا سمّا نقيـــــــعا ** وحـــرّا بل لـــــــــــــــــــه أمر خطيرٌ

ولكن قلت يـــــــا نفسي مقولي ** لذا الأمر هـــــــــــو الأمر الكبير

ومما سبق يتضح تطويل الجمل الاسمية في مثل قوله:"هو فقيه فيلسوف ذو البيان وولي الأولياء بل هو أميرهم" ثم تبدو الجمل الفعلية في نحو قوله: "فأدركت بأن ذا الجلال لمحي بل مميت وهو القدير" وقوله: "ويجعل موتنا سما نقيعا وحرا بل له أمر خطير" وقوله: "قلت يا نفسي مقولي لذا الأمر هو الأمر الكبير" وهكذا.

كما يتمثّل توسط الجمل في نحو: " فقدنا البحر" وقوله: "بل شمس الهداية" أي: بل فقدنا شمس الهداية. وقوله: "وهو لهم نذير" ويبدو تقصير الجمل حين يقول: "وهو الجدير". لكن الأغلب عليه تطويل التراكيب والجمل، ولعل السبب في كل ذلك يعود إلى طبيعة موضوعه وأسلوب معالجته.

وكثيراً ما يلجأ هذا الشاعر إلى استعمال الجملة الاسمية ليدل على ثبوت صفات شيخه المرحوم في شخصيته، وإقناع القارئ بذلك، بينما يعبر بالجمل الفعلية للدلالة على فناء الشيخ المرحوم وزواله، أو لاستمرار وتجديد حاجتهم إليهم وحبهم له. فتركيبه جميل مقنع، والعبارة سهلة، ومقاصد واضحة.

الصور الفنية في القصيدة:

(أ) العاطفة:

لا يخلو شعر من العواطف سلبية كانت أم إيجابية حسبما تقتضيه المقام والظروف، وبإمعان نظر الباحث إلى الشاعر والمناسبة التي قال فيها هذه القصيدة أدرك مدى عمق تجربته الشعرية، وأنّ الحالة الوجدانية التي دفعته إلى قول هذه الأبيات حالة حقيقية غير زائفة، فقد لازم الشيخ المرحوم، وحضر حلقاته العلمية وعرف قيمته العلمية، لأجل ذلك كلها

تأثرت وفاته عليه ثأثرا عظيما شديد المبالغة، وكاد أن يهتك حمى الإيمان لذلك كله، ولمدى حاجة الأمة الإسلامية إليه ولا سيما وقتئذ.

وقد تكون العاطفة هائجة حزينة أو هادئة بسيطة أو متوسطة. فتبدو العاطفة الهائجة لدى الشاعر في البيت الأول:

كريم مات والدمع يفور ** فقلت كيف تُسْكِنُه القبور ؟

عبّر الشاعر عن العاطفة الهائجة خلال البيت السابق، حينما وصف أحواله، عندما سمع وفاة الشيخ الأمين فبات باكيا، وعيناه مفتوحتان، مليئتان بالدموع، حتى يجري دمعه في خديه، قائلا كيف توفي الشيخ وكيف يرحبه المقبر.

وتظهر العاطفة الهائجة الحزينة أيضا في البيتين التاليين:

حمام لست حقا ذا الحيـــــــــــاء ** بأخذك مـــــن يتم لـــــه البرور

يتيما صرت مذ صـــــــــار فقيدا ** يتيم الـــــــرشد ـ اغفر ياغفور ـ

بالغت العاطفة الهائجة عند الشاعر شديد المبالغة إلى أن يعاتب الوفاة على قبض روح الشيخ المرحوم، العابد الرباني المطيع الإلهي، ثم وصف حاله الراهن لموته بأنه الآن يتيم بكل معنى الكلمة؛ لكن فيتيميته ليست من فقد الأب والأم بل من فقد الإرشاد والهداية.

وتظهر عاطفة الشاعر الهادئة في مثل قوله:

وفورا قـــالت نفسي أ هـــــــــذا ** مصوّرنا يُـميت هـــــــــــو المرير

فأدركت بـــــــــــأنّ ذا الجـــــلال ** لمحـي بل مميت هـــــــــــو القدير

ويجعل موتـــــــــــــنا سمّا نقيـــــعا ** وحـــرّا بل لـــــــــــــــه أمر خطيرٌ

ولكن قلت يـــــا نفسي مقولي ** لذا الأمر هـــــــــو الأمر الكبير

وفي الأبيات السابقة إشارة إلى أفكار الشاعر البسيطة، هذا بعد ما هاجت عاطفته وأدرك أنَّ ما قال في البيت الأول خلاف الإيمان ثم تنزل بسرعة بقوله: نبّهته نفسه عن مضمون البيت الأول وأحاطته العلم بأن الله

الخالق المصور، منه الروح وإليه تعود، وعنده ما لا تشتهيه النفس وهو يذيقكم به شئتم أو آبيتم، وقال الشاعر هنا أدركت أن الله المحي هو هو المميت، إذا هو الذي أحيا الشيخ وأماته الآن، وهو الذي جعل الموت مؤلم جدا وقاتلا بل له الشأن لا يوصف، ثم اعتذر لنفسه بأنه قال ما قال نظرا لعظمة الحادثة عنده.

وفي مثل قوله:

إلاهـــــــي فـاجعل الفردوس دارا ** لواعظنا ـ يكون لـــــه المصيـــــــر ـ

وألـــــــــــــــــــــــــحقـــــه بـــــعثمان، عليّ ** كـــــذا عمر ورابعـــــــــهم الأميـــــــر

وبرهمنا كـــــــــــذا بأبـــــي الـــعباس ** كذا بمقـــــــــــــــفّى أحمدنا النذير

كـــــــــذا بالأنـــــــــــــــبيـــــــــاء الأوليـــــــاء ** وهم لـــــــــــــناس نـــور والبـــــــــــدور

وفي الأبيات السابقة أيضا إشارة إلى أن الشاعر بعد ما هاجت عاطفته الحزينة، فوّض أمره إلى الله تعالى أن يجعل الفردوس مثوى الشيخ المرحوم، وأن يلحقه بالنبي العظيم والصحابة الكرام والأولياء الصالحين.

وبواعث كلتي الحالتين – الهائجة والبسيطة – إنما هو الحب للمرحوم والإحساس الديني القوي. وفي ذلك دلالة على أن الشاعر يحب الشيخ المرحوم حبا جما، لا يدانيه حب غيره، ويعترف بتفضيله على غيره.

فتصدق عاطفة الشاعر وقوتها استطاعته خلال أبيات القصيدة أن يؤثر في نفوس المتلقي، ويهز وجدانهم فيجعلهم يعيش تجربته الشعورية، ويشاركه في وجدانه وإحساسه.

(ب) الخيال:

الخيال: الظن والوهم، جمعه: أخيلة. والخيالة جمعه خيالات، أي ما تشبه لك من الصور في المنام، أو شيء يخيّل به البهائم والطير فتظنه إنسانا [7] ويعني عند النقاد وسيلة لإبراز العاطفة، وهو أكثر العناصر قدرة على التعبير عن العاطفة [8]

والخيال في اصطلاح اللغويين وهو "الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يولفوا صورهم وهم لا يؤلفونها من الهواء إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تحتزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم حتى يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها، صورة تصبح لهم لأنها من عملهم وخلقهم. والخيال عند الأدباء يقوم على شيئين وهما: دعوة المحسات والمدركات، ثم بناؤها من جديد"[9]. أو هو القدرة التي يستطيع العقل بها أن يشكل صورا للأشياء أو الأشخاص أو الوجود [10]

قد يكون الخيال بسيطاً أو ابتكارياً أو وهما أو موحياً؛ فالخيال البسيط هو الذي يدرك بحواس جسمية، أما الابتكاري فهو ذلك الخيال الذي لا ينافي الحياة المعقولة، والخيال الوهم هو المعقد ولا يقاس بمقياس العقل، كالأحلام والأساطير والخرافات، أما الخيال الموحي فهو الذي يضفي على الصورة معاني روحية تؤثر في النفس. [11]

ومن هذه الخيالات في القصيدة الخيال البسيط في قول الشاعر:

يصير ذيـــــــــــــــــلنا ذيلا قطيـــــــعا ** ونحن بموتـــــــــــه قوم فـــــــــــــقير

قد شبّه الشاعر حالهم في وقت وفاة الشيخ بالذيل المقطوع الأبتر في هذا البيت؛ ليدل على حاجتهم الماسة إلى الشيخ ليبث فيهم الحيوية، وكلا من حالتهم والذيل المقطوع الأبتر يدرك بحاسة البصر.

والتشبيه لغة: مصدر مشتق من فعل شبّه بتضعيف الباء، معناه التمثيل. وهو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه، وأركانه خمسة: المشبه: وهو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره، والمشبه به: وهو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره، وهما طرفا التشبيه، ووجه الشبه، وهو المعنى الجامع الذي يشترك فيه الطرفان، ويكون في المشبه به أعرف وأشهر منه في المشبه، أداة التشبيه: وهي اللفظ الذي يربط بين الطرفين ويدل على التشبيه، وقد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً ، ثم الغرض، وهو الهدف أو الفائدة التي من أجلها يسوق المتكلم التشبيه، والغاية التي ينشدها من ورائه [12] وينقسم التشبيه لدى البلاغيين إلى المرسل، وهو ما ذكرت فيه الأداة، والمؤكد، وهو ذلك الذي حذفت منه الأداة، والمجمل، أي

ما حذف منه وجه الشبه، والمفضل، وهذا ما ذكر فيه وجه الشبه، ثم البليغ، وهو ما حذف منه الأداة ووجه الشبه.

وفي البيت السابق شبه الشاعر الأولياء والأنبياء بالنور بجامع الهداية.

(ج) خصائص المعاني في القصيدة

استوظف الشاعر صورا جمالية في توضيح معاني شعره ونقلها إلى السامع أو القارئ في ثوب فني رائع، ففي البيت السادس والسابع استفهام، لكن لم يطلب به العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، بل يحمل معنى آخر أكبر وأهم من المعنى الأصل المعروف، وهو التحسّر، حيث يقول الشاعر:

إلى أيــن صفي الــــقلب خلقا ؟ ** إلى أيـــــــــن محبّنا وقـــــــــــور ؟

إلى أين وليّ اللـــــــــــــــه قومي ؟ ** إلى أيـــــــــن العليم هــو المنير ؟

وليس بأن الشاعر يسأل عن المكان الذي ينتقل إليه الشيخ بعد وفاته؛ بل استوظف الاستفهام هنا للتحسّر.

وفي البيت الثامن مجاز، والمجاز مشتق من جاز الشيءَ يجوزه إذا تعدّاه وعند البلاغيين كلمة استعملت في غير معناها الحقيقي لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي(13)

وأطلق الشاعر على الشيخ المرحوم "البحر والشمس"، في قوله:

فقدنا البحر بل شمس الــهدايه ** بشير الــــــــــناس وهْو لهم نذير

والبحر هو ما تصوره الإنسان، فرآه واسعاً، عميقاً، لا قرار له، فيه الدّر، وفيه الصدف، وفيه الموج، وفيه ما ينفع، وما يضر.

ورأى الشاعر في شخصية الشيخ المرحوم السعة في المعارف، والعمق في التفكير، ويتكلم كلاماً رائعاً يأخذ بمجامع القلوب، كما يتحدّث – إن أراد – بكلام عادي بسيط، ويغضب فيكون غضبه كالنار، ويرضى

فيكون رضاه كالعسل المصفى، ويعطي فلا يكون لعطائه حدّ. لقد اشترك الشيخ البحر في صفاته فأطلق عليه الشاعر كلمة "البحر".

والشمس هي الكوكب العالي الذي يشرق في الصباح، فيحيل الظلام نوراً، والبرد القارس دِفْئًا أو حرًّا، ويغيب في السماء فيعود النور ظلاماً، والدفء برداً، وهذا الكوكب المنير العالي سبب في انبثاق الزهر والشجر والثمر، كما هو في إحراق الغابات وكثير من معالم الحياة.

ورأى الشاعر في شخصية الشيخ صفات كصفات الشمس في علوّ المكانة، وفي إخراج الآخرين من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والعلم، وفي الحديث الطيّب الذي يبعث في القلوب الطمأنينة والرضى، ويفجر فيها ينابيع الخير، ويدفعها إلى كل عمل كريم، وإبداع عظيم، فأطلق عليه كلمة "شمس".

وفي البيت الثامن عشر تشبيه حيث يقول الشاعر:

كـــــــذا بالأنبيـــــــــــاء الأوليـــــــاء ** وهم
لـــــــــــــناس نـــور كالبـدور

(د) الموسيقى في القصيدة

الموسيقى عنصر من العناصر الهامة في صياغة الشعر، ووسيلة من وسائل الرئيسة في إثارة الشعور، وتحريك الوجدان، وبث الإحساس لدى المتلقى بالجمال، فالقصيدة – بتعبير أرشيبالد مكليش – صرخة منغومة [14] والبناء الموسيقي يتألف من إطار خارجي يتمثّل في الوزن والقافية، وموسيقي داخلية تتمثل في الإيقاع الداخلي الذي يبرزه التماثل والتوازي بين أجزاء المقطع الشعري، والتكرار، وتآلف الحروف وتجاورها، والجناس.[15]

فهذه القصيدة من بحر الوافر ووزنه في دائرته:

مُفَاعَلَتُنْ/ مُفَاعَلَتُنْ/ مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ/ مُفَاعَلَتُنْ/ مُفَاعَلَتُنْ

أما الوزن الغالب عليه فهو: مفاعلتن/ مفاعلتن/ مفاعل، مرتين، وقد دخل عروضه وضربه العصب مع الحذف، فصارت "مُفَاعَلَتُنْ" "مَفَاعَلْ"،

ونقلت إلى "فَعُولُنْ". وسمي وافرا؛ لكثرة الحركات في تفعيلاته ووفرتها؛ لأنه ليس في الأجزاء التفاعيل أكثر حركات من مُفَاعَلَتُنْ (16)

وفي تفاعيل حشو أبيات القصيدة زحاف العقل، والعصب، والكف، والعقل: هو حذف الخامس المتحرك من التفعيلة، ويكون في مُفَاعَلَتُنْ فقط فتصير مُفَاعَتُنْ.(17) والعصب: هو تسكين الخامس المتحرك، ويكون في مُفَاعَلَتُنْ فقط، فتصير مُفَاعَلْتُنْ، بسكون اللام، وتحول إلى مَفَاعِيلُنْ. أما الكف: فهو حذف السابع الساكن من آخر التفعيلة مثل فاعلاتن، تصير فاعلات. (18)

أما عن قافية القصيدة فقد جاءت مبنية على حرف الراء المتحرك بالضمة، وقد التزم الشاعر بما يسمى بالتصريع، وهو: اتفاق آخر جزء صدر البيت الأول بآخر جزء عجزه، إعرابا ووزنا وقافية. وبناء قافية القصيدة على الضمة أثقل الحركات في اللغة العربية يدل على ثقل الحادثة وعظمتها عند الشاعر.

وإضافة إلى ما سبق، يلاحظ القارئ أو السامع لهذه القصيدة نوعا من جرسٍ موسيقي داخليٍّ خلّاب منبثق من التصريع في المطلع بين قافيتي الصدر والعجز (يفور والقبور)، ومن تكرار الميم في صدر البيت الأول، وتكرار حرف الراء في البيت الثاني وفي عجز البيت الخامس، وتكرار اللام في البيت الثالث وغير ذلك.

الخاتمة

يتضح في الدراسة السابقة أن الشاعر أظهر حزنه في القصيدة التي رثى فيها الشيخ محمد الأمين الأبرواي، وقد أجاد الشاعر في القصيدة حيث استطاع أن يبكى على الفقيد وذكر فضائله وبعض مميزاته النفسية، وفي نهاية المطاف توصلت الدراسة إلى نتائج مقنعة تبرز أن القصيدة المدروسة تمتاز بالصور الفنية من زوايا مختلفة، وأهمها أن الشاعر أجاد في رثاء الشيخ وذكر فضائله وصفاته النفسية وأن القصيدة تمتاز بالعاطفة القوية الصادقة، والخيال والظواهر الأسلوبية وجودة اللغة والخصائص العروضية.

الهوامش

1- محمد صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، بيروت: دار البيضاء، ط1، 2010م، ص
2- مقبول، سعد حسن وغيره، **الأدب والنصوص والبلاغة**، بنغازي: دار الكتب العلمية،2001م، ص134
3- فارس أويب، **فن الرثاء بين أبي تمام والبحترى والمتنبي: بحث وتحليلي ومقارنة**، دمشق: مطبعة الإعتدال، 1932م، ص 13
4- ناصر عبد الإمام الإبراوي، **مخطوطة قصيدة "إلى أين ولي الله قومي؟"** وجدها الباحث من الشاعر بتاريخ 21- 03-2024
5- معلوف لويس، **المنجد في اللغة والأعلام**، لبنان: دار الشرف، 1997م، 202.
6- الغلاييني، مصطفى، **جامع الدروس العربية**، ص:7.
7- معلوف لويس، المرجع السابق، والصفحة نفسها.
8- الصديقي، ضياء وغيره، **فصول في النقد الأدبي وتاريخه**، القاهرة: دار المعارف، ط1، 2008م، ص 22
9- شوقي ضيف، **في النقد الأدبي**، القاهرة: دار المعارف، ط:4، 1972م، ص 167
10- عبد الغني محمد، **تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق، عمان: مؤسسة الوراق**، 2002، ص28
11- ضيف شوقي، **فصول في النقد الأدبي وتاريخه**، دار المعارف، ط3، 1982، ص 26
12- بسيوني، **علم البيان**، القاهرة، ط2، 2008م، ص76
13- أمين، بكري شيخ، **البلاغة في ثوبها الجديد**، (ط:1، بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1982م، ص76
14- علي، محمد أبو المجد، **شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي في العصر الأموي**، دون مكان: دار المروة، 2004م.، ص97
15- خضر، فوزي، **عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة البابطين**، الكويت، 2004م، ص 212

16- عثمان، حمد بن حسن، **المرشد الوافي في العروض والقوافي**، ط:1، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، 1425هـ/2004م) ص: 65.
17- المرجع نفسه، ص 66
18- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.